ابو الحسن علي الحسني الندوي

الأركان الأربعة

(الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج)

في ضوء الكتاب والسنة
مقارنة مع الديانات الأخرى

الناشر
دار الكتب الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الأركان الأربعة

(الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج)

بين يدي الكتاب

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ،

أما بعد ، فهذا كتاب تحدثتُ فيه عن أركان الإسلام الأربعة : الصّلاة والزكاة ، والصّوم ، والحج ، عن وضعها السماوي ، وحقيقتها الشرعية ، وتشريعها في الاسلام ، ومكانتها في الدين ، وفي الحياة الفردية والاجتماعية ، وعن مقاصدها وأسرارها كما قررها الكتاب والسنّة ، وفهمها المسلمون في القرون المشهود لها بالخير ، والمتمسكون بلباب الدين ، والراسخون في العلم في مختلف العصور والأجيال ، في غير تكلّف عجمي وتنطّع فلسفيّ ، وتطرّف شخصي ، وفي غير خضوع لأفكار أجنبية واتجاهات عصرية ، وفي غير إخضاع — لمعانيها وحكمها ونظمها ومناهجها — للفلسفات السياسية والمذاهب الاقتصادية والاجتماعية السائدة في عصورهم وأمصارهم .

وقد درستُ — زمن تأليفه — القرآن الكريم من جديد ؛ ومصادر السنة ودواوينها الصحيحة ، وما كُتب في موضوع هذه الأركان ، وشرحها وتفسيرها ، وبيان مقاصدها وأسرارها ، وعُنيتُ بصفة خاصة بكتابات الأئمة الذين شرح الله صدرهم لفهم مقاصد الاسلام وروحه ، والوصول إلى أعماقه ، في غير تفريط وإفراط ، وتكلف وإغراق ، ووفقوا لبيان مقاصد الشريعة الإسلامية وأسرار التنزيل وحكم التشريع ، كما أرادها الشرع ، وكما

فهمها المسلمون الذين توجّه إليهم الخطاب ، ونزل في لغتهم الكتاب ، وكانوا يجمعون بين الفهم العميق والعلم الغزير ، والعمل القوي ، والاتّباع الدقيق ، (للرسول ﷺ) والمجاهدة الدائبة في مجال العلم والعمل ، فتمهدت لهم السبل ، ولانت لهم الصعاب ، وقد قال الله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » . وقد تشبّعوا بروح هذه العبادات ، كما تضلّعوا في علومها ، ومارسوها بصدق وإيمان ، كما دارسوها بدقة وإمعان ، فنطقت هذه الأركان على لسانهم ، وعبرت عن مكنوناتها ومضمراتها في شرحهم وبيانهم ، وكان أكثر استفادتي من كتاب (حجّة الله البالغة) ، لشيخ مشايخنا شيخ الاسلام احمد بن عبد الرّحيم ، المعروف بوليّ الله الدهلوي ، وهو كتاب فريد في موضوعه ، وقد جاءت خلاصة ما كتبه في الأركان الأربعة وروحُه في هذا الكتاب .

فبدأت بالكتاب والسُنّة وما ورد عن هذه الأركان ، وعن روحها وحقيقتها ، ومقاصدها وآدابها ، في القرآن والحديث ، وأردفت ذلك بما جاء في كتب هؤلاء الأئمة في تفسيرها وتفصيلها ، وتوجيهها وتعليمها ، فجاء تفصيلاً للمجمل ، وتبسيطاً للموجز ، ولم يمنعني الحياء والشعور بالنقص عن عرض ما فتح الله به عليّ — وهو الفتّاح العليم — من فهم بعض مقاصد هذه الأركان الجليلة ، والكشف عن بعض جوانبها ومطاويها وصلتها بالحياة وفضّها لكثير من المعضلات والمشكلات ، ولم أتوقف من نقل بعض أقوال العلماء المعاصرين ، وذلك كله في أسلوب علمي أدبي عصري ، فجاء الكتاب بحول الله يجمع بين القديم والجديد ، ويمثّل المكتبة الاسلامية الزاخرة في هذا الموضوع ، ويعرضها عرضاً جديداً للجيل الاسلامي الجديد ، فقد كادت صلته تنقطع عن كتب المتقدمين وأساليبهم ، وخير ما دبّجته أقلامهم وفاضت به خواطرهم ، فكان ذلك خطراً على الجيل الجديد ، وتفريطاً في حق السلف ، وإساءةً إلى المكتبة الاسلامية التي لا تُدانيها مكتبة دينية في أمة من الأمم ، وقد توارثت

هذه الأمة فهم معـاني العبادات وحقيقتها ومقاصدها كما توارثت أوضاعهـا وأشكالها ، وأحكامها وآدابها ، وتوارثت العمل بها من غير انقطاع أو فـترة ، أو جهالة أو غفلة ، حتى وصل إلينا هذا الدين ، متواتراً متصلاً ، في المعاني والأشكال ، والمقاصد والهيئات ، فليس لأحد في هذا العصر أن يبتكر لركن من هذه الأركان ، مفهوماً لم تعرفه هذه الأمة في عمرهـا الطويل ، أو يلبسه لباسا « مستورداً » من الخارج أو مستعاراً من أجنبي .

وبدا لي ، بعد ذلك أن أدرس هذه العبادات – وهي العبادات التي تلتقي عليها جميع الديانات التي كانت لها أيّة صلة بالسماء في عهـد من العهود – في الديانات الأخرى ، وهي التي لا يزال يدين بها خلق كثير وشعوب كبيرة في العالم المعاصر ، وأن أقارن بين أوضاع هذه العبادات ومناهجها وفلسفتهـا وأحكامها في هذه الديانات ، وبين أوضاعها ومناهجها وفلسفتها وأحكامهـا في الدين الاسلامي ، والشريعة الاسلامية ، وأن أعتمد في ذلك على مصادر هذه الديانات الأصيلة الموثوق بها عند أهلها ، كما اعتمدت في الحديث عن أركان الاسلام الأربعة وعرضها وتفسيرها على القرآن والحديث غالباً ، وعلى كتب أئمة الاسلام نادراً ، وأن يكون استعراضي لما كتب في هذا الموضوع في الديانات الأخرى ، ودراستي له دراسة أمينة عميقة ، أحاول فيها بقدر الإمكان أن أهتدي في هذا البحث والدراسة إلى اللُّباب ، والقول الفصل في هذا البـاب ، عند فقهاء هذه الديانات وزعمائها .

وقد كانت هذه المهمة عسيرةً دقيقة ، إذ الوضع الديني والفقهي في هـذه الديانات يختلف عن الوضع الديني والفقهي عند المسلمـين ، اختلافـاً كبيراً ، والباحث يواجه غموضاً واضطرابا عظيماً ، وفراغاً علمياً هائلاً ، لا عهد له به في كتب الشريعة والفقه ، وتاريخ التشريع الإسلامي . وقد استطعت بحول الله أن أخرج في هذا الكتاب بدراسة مقارنة تسدّ – إلى حدٍّ ما – فراغـاً في هذا الموضوع .

وقد كانت الحاجة إلى الدراسة المقارنة شديدة ، لأن المسلم لا يستطيع أن يقدّر نعمة الاسلام ، وما أكرمه الله به عن طريق هذا الدين الكامل الخالد الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »، ولا أن يستوفي حق الشكر والحمد إلا إذا قارن بين هذه العبادات في الاسلام والعبادات في الأديان الأخرى ، فضلاً عن العقائد والمبادىء والأسس التي يقوم عليها صرح الاسلام العقائدي والكلامي ، وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر أنه قال : « يوشك أن ينقض الاسلام عروة عروة من نشأ في الاسلام لا يعرف الجاهلية » . والموضوع خاضع للتوسع والترقي ، وزيادة الاتقان ودقة البحث ، لما يتجدد من معلومات ، ويصدر بين حين وآخر من موسوعات علمية ومؤلفات دينية ، بقلم علماء هذه الديانات ، والمؤلف مستعد للإفادة منها في الطبعات الجديدة .

وكان مما حفز المؤلّف على هذا التأليف – رغم أمراضه التي يعانيها ، والاشغال والمسؤوليات التي ترهقه – ما كان يشعر به من مدة طويلة من اضطراب الآراء والكتابات في تفسير هذه الأركان ، ومقاصدها وغاياتها ، وفوائدها ومصالحها في هذا العصر ، وإخضاعها في جراءة كبيرة ، وتوسع وسخاء للفلسفات العصرية ، والمذاهب الاقتصادية والسياسية ، ومصطلحاتها وتعبيراتها المحدودة ، حتى كادت هذه الأركان في عقول من آمن بهذا التفسير وخضع لهذا العرض ، تفقد حقيقتها وقوتها ، وتضيّع مقاصدها التي شرعت لأجلها ، وكاد معنى الايمان والاحتساب يضيع من بين هذه التعبيرات المادية والتفسيرات العصرية ، وكاد التفكير المادي يطغى على روح العبادة والاخلاص، فكان ذلك – بحيث يشعر أصحاب هذه الفكرة أو لا يشعرون – خطراً كبيراً على الأمة ، وطليعة تحريف كبير في فهم المعاني الدينية والمقاصد الشرعية .

وحدث أن مجلّة « المسلمون » التي كانت تصدر من « جنيف » دعت

المؤلف إلى كتابة مقال عن الحج بمناسبة موسمه ، واتفق ذلك ثلاث مرات ، فكان المؤلف يكتب مقالاً كل عام ، عن حقيقة الحج وروحه ومقاصده ، تنشره المجلة العزيزة وتذيعه الإذاعة السعودية في أكثر الأحيان ، ويقرأه الشباب المسلم بعناية زائدة ، وتقدير كبير ؛ ونظر المؤلف في هذه المقالات الثلاث ، فشعر بأنه أسلوب جديد للكشف عن مقاصد الحج الشرعية الحقيقية ، ومحاولة متواضعة للانتصار لهذا الركن المظلوم ، الذي كان إخضاعه للاتجاهات الجديدة والمعاني السياسية أكثر من كل ركن ، حتى أصبح في نظر كثير من المثقفين مؤتمراً سياسياً عالمياً ، يُعقد كل عام ، وليست له إلاّ هذه القيمة السياسية الاجتماعية ، فرأى أن يوسع هذا المقال وينشره كرسالة مفردة ، تعرض الحج في إطاره الإسلامي الأصيل الواسع ، وتُثير معانيه العميقة ومقاصده البعيدة ، وروحه القوية ، الإبراهيمية الحنيفية .

وكذلك وفق المؤلف لكتابة مقالين عن رسالة الصيام ، ومقاصده بمناسبة حلول رمضان ، واقتراح مجلة « المسلمون » ، فبدا للمؤلف أن يكمل هذين المقالين ويضم إليهما ركن الصلاة والزكاة ، وهكذا تكوّنت فكرة الكتاب ، واستوات على مشاعر المؤلف وأعصابه ، فشغلته عن كل عمل تأليفي ، أو تحقيق علمي ، وبقي يعيش في هذه الفكرة أكثر من عام ، يدرس النصوص ويراجع المصادر ، ويُملي المقالات — لعجزه عن الكتابة والمطالعة بنفسه — ويساعده بعض إخوانه وزملائه في كتابة هذه الأمالي ، وفي تخريج الأحاديث وفي النظر في الموادّ الأجنبية ، والبحث عن الموادّ ، أخصّ بالذكر والشكر منهم العزيز نثار الحق الندوي ، والاستاذ تقي الدين الندوي ، والمفتي محمد ظهور الندوي ، والأستاذ شاهد علي ، مدرس اللغة الإنكليزية في دار العلوم ، والعزيز علي آدم الافريقي ، والآخوين نذر الحفيظ وغياث الدّين الندويين ،

جزاهم الله جميعاً عن المؤلف والقراء ، فجاء هذا الكتاب حصيلة مطالعـــة ، ونتيجة تأملات ، ورائد بحث أوسع وأعمق ، والحمد لله الذي بعزّتـه وجلاله تتم الصالحات .

أبو الحسن علي عبد الحي الحسني الندوي

دائرة الشيخ علم الله الحسني

رائي بريلي (الهند)

٢ — ٢ — ١٣٨٧ هـ

الصلاة

الصلاة

« وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين [1] »

الحاجة إلى فهم الصلة التي تقوم بين العبد والرب :

لا يفهم الصلاة ، ولا يفهم الحاجة إليها ولا يتذوّقها ، إلاّ من عرف تلك الصلة الغريبة الفريدة ، التي تقوم بين العبد وبين الرب ، إنها صلة غريبة فريدة ، لا نظير لها ولا مثال ، إنها لا تقاس على صلة بين طرفين وبين اثنين في هذا الوجود ، إنها لا تقاس على صلة بين صانع ومصنوع ، وبين حاكم ومحكوم ، وبين قوي وضعيف ، وبين فقير وغني ، وبين مستجد مكدّ ، وبين جواد منعم ، فحسب ، إنها صلة أدقّ من جميع هذه الصلات ، وأعمق وأقوى وأشمل .

الصلاّت تابعة للصفات ، نابعة منها :

ولا يفهم هذه الصلة الغريبة الفريدة بين العبد والرب ، إلاّ من عرف صفة العبد والرب ، والصلة دائماً تابعة للصفة ، نابعة منها ، إنك لا تستطيع أن تحدّد صلة بين طرفين ، وبين إثنين ، إلاّ إذا عرفت صفة كل واحد منهما ،

---

(١) سورة الروم - ٣١ .

وعرفت التفـاوت أو التفاضل بينهما ، وعرفت مقدار احتياج أحدهما إلى الآخر ، وفضل أحدهما على الآخر ، وجميع الصلات التي نمارسها في الحيـاة ، والتي تشكّل القانون ، وتكوّن المدنية ، وتصوغ المجتمع خاضعة للصفات التي نعرفها أو نتوهمها للأفراد والكائنات ، أو أعضاء الأسرة أو ذوي السلطان .

الصفات والأسماء ، ومكانتها في الدين والقرآن :

لذلك لهجت الصحف السماوية ، والأديان والشرائع بالصفات قبل أن تحدّد الصلات ، وتدعو إلى العبادات ، وتسنّ الفرائض وتحثّ على الطاعـات . ولذلك سبقت العقيدة في جميع الأديان العمل والعبادة وأحكامها وشرائعها ، ودعا جميع الرسل في مختلف الأدوار والأمصار الى العلم الصحيح والمعرفـة الصحيحة ، ووصف الله الوصف الصحيح ، ودعوا إلى التقديس والتنزيـه قبل أن يـدعوا إلى شيء آخر ، وشغل هذا الموضوع أكبر فراغ في أوقاتهم وأكبر قسط من جهودهم وأكبر مـكان في صحفهم ودعواتهم ، وجاهدوا في ذلك الجهاد الأكبر .

والقرآن الذي جاء مهيمناً على هذه الكتب كلها ، وكان الكتـاب الأخير الخالد أكبر شاهد على ذلك . فهو الموضوع المكرّر المنوّع الذي احتلّ المكان الرئيسي في هذا الكتاب المعجز ، وسمّى ما تجلّى فيه هذا الموضوع بأكبر قوة ووضوح على وجازته وقِصَره « وهي سورة الإخلاص » . ثلث القرآن [1] وذكرت من صفات الله الكريمة وأسمائه الحسنى ، وأفعاله وتصرفاته العجيبة ، وقوته وقدرته ، وصنعه وإبداعه ، ولطفه ورحمته ، وحبه ورأفته ، وجوده وكرمه ، وعفوه وصفحه ، وإعطائـه ومنعه ، وضرره ونفعه ، وعلمـه ومعرفته ، وقربه ودنوّه ، وإحاطته ومعيته ، وقبوله واستجابته ، مـا يجعله

---

(١) جاء في حديث رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : ألا إنها (يعني سورة الاخلاص) تعدل ثلث القرآن . « باب فضل قل هو الله أحد » .

المثل الأعلى في الجمال والجلال ، والكمال والنوال : « وله المثل الأعلى في السموات والأرض ... وهو العزيز الحكيم [1] » ويجعله متفرداً في صفات الحُسن والإحسان : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [2] » .

الانسان ، المخلوق الغامض المتناقض :

وكذلك وردت نصوص وإشارات في هذه الكتب – وشهد العلم والتجربة بصحتها – بوصف هذا الإنسان المخلوق • وبيان ما فُطر عليه ، وتركّبت به طبيعته من أضداد ومتناقضات ، فليس هنالك مخلوق – على كثرة المخلوقات والموجودات – أدق وأعمق منه صنعاً ، وأكثر منه غرابة وغموضاً ،وأعظم منه تناقضاً وتضارباً ؛ فهو ضعيف يحب القوة والغلبة ، فقير يحبّ الغنى والخير ، خاضع لناموس الموت والفناء ، محبّ للخلود والبقاء ، متعرض للأمراض والأخطار ، ولوع بالصحة والسلامة ، هلوع جزوع ، ولوع طموح ، كثير الحاجات دقيق الرغبات ، عميق الهواجس والخواطر ، بعيد الآمال والنظرات ، لا تروى غلته ولا تُشبع جوعته ، ملول طرف [3] . سؤوم ضجر يكره القديم التليد ، ويطلب المزيد الجديد ، ويزهد في الميسور الموجود ، ويرغب في المعدوم المفقود ، حاجاته ومطامعه أكثر من أنفاسه ، وأطول من حياته ، وأوسع من أن يسعها هذا العالم المحدود .

وفي هذا التناقض الغريب ، والصراع العنيف ، وفي هذا الطموح البعيد ، والحرص والنهامة ، والطلب والإستزادة ، سرّ شرفه وكرامته ، واصطفائه وخلافته ، وبه استطاع أن يتسلّم الأمانة التي اعتذرت عنها السموات والأرض والجبال « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » [4] وبه استحقّ

(١) سورة الروم – ٢٧ . (٢) سورة الشورى – ١١ .

(٣) كثير الملل من القديم ، محب لكل جديد طريف .

(٤) سورة الأحزاب – ٧٢ .

الخلافة في هذه الأرض ، ووصل إلى أسمى مكان تحسده عليه الملائكة المقربون .

مخلوق أليف حنون :

وكذلك عُجنت طينته بالحب والحنان ، ورزق – عدا الحواس الخمسة التي يستخدمها ويتمتع بها في حياته المادية – حاسة سادسة هي حاسة الحب والحنان قد تضعف وقد تقوى ، وقد تكمن وقد تبرز ، ولا يحرمها بتاتاً إلا من فقد الإستعداد وحاد على الفطرة ودخل في الجماد ، فهو مخلوق أليف حنون ، قوي العاطفة رقيق الشعور ، يندفع إلى الجمال أو الكمال اندفاعاً لا يوجد عند غيره من المخلوقات ، من حيوانات وجمادات ، ويعطيها من نفسه ومشاعره ، وحبه وعاطفته وتفانيه ما لا يعطيه غيره ، تشهد بذلك أخبار العشاق والمتيمين الذين لم يخلُ منهم عصر أو مجتمع وأخبار العارفين المحبّين في أمم الأنبيـاء ، ويشهد بذلك الشعر الغزلي والأدب العـاطفي الوجداني ، الذي تزخر به مكتبة الآداب العالمية .

خاضع خاشع بالغريزة :

وكذلك جبل ، مع الغرائز التي يحملهـا ، غريزة التواضع والخضوع ، والتطامن والخشوع ، وقد تجلّت هذه الغريزة في كل دور من أدوار حياته ، وفي كل طبقة من طبقاته ، فكان في دوره البدائي – ولا تزال له بقية في كثير من المجتمعات – يخضع أمام الأحجار وبعض الأشجار والأنهار ، وكان يعبد النار ، ويعبد الشمس أو القمر أو الكواكب ، ويخشع أمام مظاهر الطبيعة أو الظواهر الكونية ، ويخضع للسدنة والكهّان ، والأحبار والرهبان ، والجن والأرواح ، ولكل ما تعسّر فهمه ودقّ علمه ، ولا يزال رغم ثقافته الواسعة ، وعقليته المترقية ، ودعاويه الطويلة العريضة ، ورغم عتوه واستكبـاره ، وثوراته التي لا تكاد تنتهي ، يخضع للحكام والسلاطـين ، وزعمـاء الأحزاب ورؤساء الحكومات ، والنظم والفلسفات التي هي من وضعه ، أو وضع بني

جنسه ، ويخضع كذلك في دور نبوغه وتحضّره للمبدعين والعبقريين ، والشعراء والأدباء والفنّانين ، وكثير من المفكرين والمشرّعين ، وكبار الاغنياء الموسرين وأصحاب الحول والطول ، والأمر والنهي خضوعاً فيه كثير من الوَله والهيام ، وكثير من التقديس والتأليه ، فهو انسان ولوع حنون ، خاضع خاشع ،متطامن متواضع بالغريزة والفطرة ،

لابد من مثل أعلى :

فلا بـد له من مثل أعلى للجمال أو الكمال ، أو القوة والعزّة ، أو الغرابة والغموض ، أو السيطرة والنفوذ ، ليشغل هـذه الغريزة ومقتضياتها ، ويرضي مطالبها ويحقّق غاياتها ،

الصلة العادلة المعقولة ، التي يجب أن تكون دائماً بين « الانسان » وبين « الله » :

تأمّل في صفات الرب التي سبقت ، من قوة وقدرة ، وعلم وخبر ، ورحمة ولطف ، وكرم وجود ، واستجابة وقبول ، وقرب لا مزيد عليه ، وبكل ما نطق به القرآن من صفات الله العليا ، وأسمائه الحسنى ، وبكل ماجاء به في ذلك من المعجب المطرب ، من النعوت والأوصاف ، والأخبار والآثار .

ثم تـأمّل في صفات هـذا الإنسان المخلوق ، واستعرض كل ما اتّصف به ، من ضعف وعجز ،وفقر وفاقة ،ثم انظر الى طموحه الذي لم يُعرف لأي مخلوق ، ونهامته — للماديات أو المعنويات — التي تفوق كل شره ونهامة عند أكبر حيوان ، وإلى حاجاته التي لا يشاركه مخلوق آخر في كثرتها وتنوعها ودقّتها ، وإلى آماله ومطامعه التي لا تكاد تنتهي ، ثم انظر إلى غريزة الحب والحنان ، والخضوع والإنحناء المودعة في هذا الإنسان .

أما احتاج هذا الإنسان إلى أن يكون في خضوع دائم ، وفي ركـوع أو

سجود لا انقطاع لها ، وفي مناجاة ودعاء لا نهاية لها ، أمام الرّب الذي هو الإله الحق والجواد المطلق ، والذي أعطاه من كل ما سأل بلسان القال أو بلسان الحال ؟ : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها [١] » والذي يعلم الخواطر الدقيقة الدفينة ، والأماني الموؤدة المَنسية أو الأحلام القديمة المطمورة ، التي نسيها الإنسان أو تخلّى عنها أو يئس من تحقيقها ، والتي قد يَغار عليها القلب فلا يشرك فيها العقل « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه [٢] » « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [٣] » « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى [٤] » والذي هو أقرب من كل قريب ، والذي هو دائماً سميع مجيب « وإذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون [٥] » « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد [٦] » « ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون [٧] » والذي كان السائل الملحف ، والداعي المتشبث ، أحب إليه من أبي ممتنع ، وصامت مستغن : « وقال ربّكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين [٨] » أُدعوا ربّكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين [٩] » ويقول رسول الله ﷺ : « إنه من لم يسأل الله يغضب عليه [١٠] »

الكون في خضوع دائم وعبادة مستمرة :

لقد ظلت الشمس مشرقة وهاجة منذ كان هذا الكون ، تنشر النور وتمنح الحياة والحرارة ، وظل القمر سراجاً منيراً ينير السبيل ويحدد الشهور والسنين ، وقد انتصبت الجبال قائمة من آلاف السنين تبلّغ رسالتها ، ووقفت الأشجار

---

(١) سورة ابراهيم - ٣٤ . (٢) سورة الانفال - ٢٤ . (٣) سورة المؤمن - ١٩ .
(٤) سورة طه - ٧ . (٥) سورة البقرة - ١٨٦ . (٦) سورة ق - ١٦ .
(٧) سورة الواقعة - ٨٥ . (٨) سورة المؤمن - ٦٠ . (٩) سورة الأعراف - ٥٥ .
(١٠) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه « كتاب الأدعية باب ما جاء في فضل الدعاء »

على قدم وساق ،وافرة الثمار وارفة الظلال تعبد الرّب وتخدم الإنسان – سيد هذا الكون وخليفة الله في أرضه – وانطلق الهواء يحمل رسالة الحياة لهذا الإنسان ، وهبّت الرياح لواقح تحمل أمانة الماء من جهة إلى جهة ، وسارت السُحب تحمل الأمطار وتحيي الأرض بعد موتها ، وجرت الأنهار تروي ظمأ الإنسان وتسقي الزروع ،وتثير دفائن الأرض ، ومشت الحيوانات والدوابّ على أربع كأنها في ركوع دائم تنقل الإنسان من مكان إلى مكان ، وتحمل الأثقال ، وله فيها دفء ومنافع ، ومطاعم ومشارب ، وزحفت كثير من الحيوانات على صدرها وبطنها فيها مآرب للإنسان ،

فهذه المخلوقات التي لا عقل لها ولا قلب ، في عبادة دائمة ، في طاعة وخضوع لأمر الله تعالى ، فلا عصيان ولا ثورة ، ولا تمرّد ولا جموح ، ولا ملل ولا سآمة ، ولا إضراب ولا انقطاع عن العمل ، ولا راحة ولا عطلة ، فكأنها دائماً في السجود : « ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، ان الله يفعل ما يشاء [1] » « ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون [2] » « ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدوّ والآصال [3] » «الشمس والقمر بحسبان .والنجم والشجر يسجدان [4] » « الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخّر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ،وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار[5] »

---

(١) سورة الحج – ١٨ . (١) سورة النحل – ٤٩ – ٥٠ . (٣) سورة الرعد – ١٥ .
(٤) سورة الرحمن – ٦ . (٥) سورة ابراهيم – ٣٢ – ٣٣ – ٣٤ .

فهذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وعلى تنوع عباداتها في صلاة ، تتفق مع طبيعتها ووظيفتها ، وفي حمد وتسبيح لا يفقهها إلاّ من فتح الله بصيرته ورفع عنه الحجاب : « تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً [1] » « ألم تر أن الله يسبّح له من في السموات والأرض والطير صافّات ، كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون [2] »

مركز الإنسان في هذا العالم وما يقتضيه ، وسبب تميّزه عن سائر الكون في العبادة :

لقد كان الإنسان بشرفه واختصاصه ، وعقله وقلبه ، أحقّ من جميع هذه المخلوقات التي سبق ذكرها ، بأن يكون في عبادة دائمة لا انقطاع لها ، من قيام وركوع وسجود ، ومن حمد وتسبيح وذكر لا يفتر عنه لسانه ، وقد كانت الهبات التي اختص بها ، والعناية الإلهية التي كان موضعها ، والنعم التي تدفقت عليه ونزلت كالمطر الغزير ، تقتضي أن لاينقطع عن هذه العبادة ، ولا ينصرف عن هذه « الصلاة » طرفة عين ، وأن يكون كالملائكة الذين وصفهم الله بقوله : « وله من في السموات والارض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لايفترون [3] »

ولكنه اختير ليكون خليفة الله في أرضه ، وهيّىء لهذا المنصب ، فخلقت فيه الشهوات ، ووضعت فيه الحاجات ، وأودعت فيه المشاعر والأحاسيس ، والعواطف والرغبات ، وأودع فيه الحب والحنان والرقة ، والتألم والإلتذاذ ، ووضع فيه الإستعداد للمعرفة ، واستخدام ماخلقه الله في هذه الارض وبثه من دفائن وخزائن ، ونعم وخيرات ، وقوى وطاقات ، وكان تعليم الأسماء الذي

---

(١) سورة بني اسرائيل - ٤٤ . (٢) سورة النور - ٤١ . (٣) سورة الانبياء ١٩-٢٠.